منشورات الجمعية الإسلامية 5

القصر الكبير و رجالاته عبر التاريخ

محمد المهدي الطود الحسني

منشورت الجمعية الإسلامية 5

القصر الكبير و رجالاته عبر التاريخ

محمد المهدي الطود الحسني

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الكتاب : القصر الكبير ورجالاته عبر التاريخ

تأليف : محمد المهدي الطود الحسني

معالجة النصوص : نادي الأندلس للمعلوميات بالقصر الكبير

مطبعة : طوب بريس - الرباط

الطبعة : الأولى **2004**

حقوق الطبع : الجمعية الإسلامية

رقم الإيداع القانوني : **2001/0634**

صورة الغلاف : منظر عام للمسجد الأعظم الذي أعيد ترميمه

تقديم :

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه.

وبعد. فهذا كتاب "القصر الكبير ورجالاته عبر التاريخ" بقلم أحد علماء مدينة القصر الكبير الاجلاء وأبنائها البررة الأستاذ المهدي الطود، مع سيرة للمؤلف بقلم نجله الأستاذ عبد الكبير الطود، يقدم فيه صاحبه التفاتات مركزة، ويمزج فيه بين التوثيق التأريخي والنظرة الحميمية للمدينة ولمن تربطه بها أواصر متينة، فجاء على قصره مليئا بالإيحاءات. كما أنه يختزل حقبة زمنية طويلة من خلال الوقوف عند أبرز محطاتها، مذكرا تارة بحقائق التاريخ، وموضحا تارة سياقات بعض الأحداث التي ظلت غير واضحة المعالم، مما يجعله محاولة تأريخية ثقافية تسهم في النقاش حول تطور المدينة وعلاقتها بمنطقتها وبتاريخ المغرب العام، وتثير رغبة الباحثين للتعمق في تاريخ لازال في حاجة إلى مجهودات كثيرة رغم ما كتب فيه لحد الآن.

والجمعية الإسلامية بالقصر الكبير إذ تصدر هذا الكتاب إنما تسعى لتعزيز جهود أخرى سابقة، عنت بالتأريخ للمدينة وإبراز أمجادها والتعريف بأعلامها، مثل كتاب الفرنسي ميشو بلير، الذي نشر بالفرنسية سنة **1904**م ضمن مجلة الأرشيفات المغربية ويعتبر اقدم أثر بين أيدينا اليوم في هذا المجال، وكتاب القصر الكبير **1930** للكاتب الإسباني هيناريس، وكتاب المرحوم محمد بوخلفة المعنون بالطريق إلى معرفة القصر الكبير وقد صدر سنة **1972**م.

كما نشطت في هذا المجال أيضا بعض الجمعيات المحلية، فأخذت على عاتقها البحث في ماضي المدينة أو حاضرها وتقديم نتائج ذلك للقراء والمهتمين، وخاصة جمعية البحث التاريخي والاجتماعي التي أصدرت لحد الآن عددا من

الكتب منها كتابا الأستاذ محمد بنخليفة : أعلام القصر الكبير، والشتيت والنثير في تاريخ القصر الكبير، وكتب الأستاذ محمد اخريف حول مطفية الجامع الأعظم، وحول وثائق تاريخ المدينة ومنطقتها، وكتاب الأستاذ محمد القوصي حول صناعة الحديد بالقصر الكبير وهو بالغة الفرنسية.

وجمعية مجموعة الدراسات والأبحاث حول القصر الكبير التي يرأسها الدكتور محمد المغراوي، أستاذ التاريخ بجامعة محمد الخامس بالرباط، وقد أصدرت سنة **2000**م أعمال ندوتها الأولى في كتاب بعنوان: مدينة القصر الكبير : الذاكرة والحاضر، تضمن عددا من البحوث المتخصصة حول قضايا دقيقة من تاريخ وواقع المدينة.

كما أخبرنا الأستاذ الكبير مولاي عبد العزيز بن عبد الله، عند اتصالنا به قبيل هذا الإصدار، بأنه سينشر في القريب كتابا عن تاريخ المنطقة لعله يكون أهم واكبر عمل في بابه، لشموله ومعلوماته الجديدة واعتماده على كثير من المصادر الأجنبية لم تسبق الإشارة إليها من قبل. وإنه جاهز للطبع وسيصدر بعنوان بين العرائش والقصر الكبير. نرجو أن يرى النور في أقرب الآجال.

إن هذه الاهتمامات المتعددة بالمدينة وتاريخها من قبل المؤرخين والمهتمين عموما، أو من قبل المثقفين من أبنائها خصوصا، إنما تدل على عراقة هذه المدينة ومكانتها التاريخية من جهة، وعلى تعلق أبنائها بها، وسعيهم الحثيث لإبراز ماضيها وتقديمه للأجيال الحاضرة، ولإعادة الاعتبار لها والإسهام في تنميتها الثقافية من جهة أخرى.

وفي هذا الإطار بالذات تأتي مبادرة الجمعية الإسلامية لنشر هذا العمل باتفاق وتنسيق مع نجل المؤلف الأستاذ عبد الكبير الطود الذي سلم الجمعية مشكورا نسخة من الأصل ونبذة عن سيرة أبيه.

وقد كان هذا العمل في أصله محاضرة ألقاها الأستاذ المهدي الطود في سنة **1971**م خلال الأسبوع الثقافي المقام من طرف المجلس البلدي، وفي سنة **1989** بطلب من جمعية البحث التاريخي والإجتماعي بمناسبة حفل التكريم الذي أقامته على شرف السيد المحاضر. وفي هذا الإصدار حرصنا على عدم تغيير أي شيء لا في متن الأصل ولا في الهوامش مراعاة للأمانة العلمية إلا ما كان من صيغ توحي بطابع المحاضرة وهو قليل، فقد حذفناه حتى يتناسب العمل مع شكل الكتاب.

حرصنا أن يتم أول تقديم للكاب إلى الجمهور أثناء حفل تدشين المقر الجديد للجمعية الإسلامية الذي يصادف الذكرى الثامنة والعشرين لتأسيسها، حتى تكون الذكرى عملية ونافعة، وخادمة للعلم والثقافة والعمل الجمعوي بالمدينة.

عن مكتب الجمعية

عبد الناصر التجاني

بطاقة شخصية للمؤلف محمد المهدي الطود الحسني

1 - ازداد بتاريخ : 18 ربيع الأول 1331هـ الموافق ل : 26 فبراير 1913م بمدينة القصر الكبير.

2 - تلقى تعليمه الأولي بكتاب سيدي علي بلعربي، حيث حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة وبعض المتون على شيخيه الشقيقين السيدين أحمد بن الغالي بن حمان الطود وعبد السلام بن حمان الطود.

3 - أول دراسته للعلوم الإسلامية بالبيت على يد عمه العلامة سيدي أحمد بن عبد السلام الطود الحسني، ثم العلامة سيدي محمد بن عبد القادر الطود الحسني ثم باقي شيوخ المدينة البارزين في عصرهم بمدينة القصر الكبير.

4 - تلقى تعليمه الجامعي بالقرويين لمدة أربع سنوات كمرحلة أولى من سنة 1346هـ إلى نهاية سنة 1349هـ.

5 - بعد رجوعه من فاس لظروف سياسية قاهرة اهتم بدراسة التصوف بتوجيه وإرشاد من شيخه العلامة سيدي أحمد الزواقي التطواني قاضي القصر الكبير آنذاك (1350-1351هـ) حيث درس معه العلامة المذكور "رسالة القشيري".

6 - اشتغل بالتعليم التطوعي برغبة من شباب القصر الكبير : 50-51 هـ.

7 - عاد إلى القرويين لمتابعة التكوين والتحصيل على يد خيرة علماء فاس ابتداء من فاتح محرم سنة 1352هـ إلى منتصف سنة 1354هـ.

8 - واصل التدريس التطوعي بمساجد القصر الكبير : سيدي سعيد وسيدي علي بلعربي وضريح سيدي أحمد الفاسي.

9 - من المؤسسين الأوائل لفرع حزب الإصلاح الوطني سنة 1355هـ (1937/01/21م).

10 – التحق بسلك العدالة –شعبة التوثيق– بعد اجتياز امتحان بامتياز رغم اعتراض السلطات الاستعمارية سنة 1357هـ الموافق 1938م.

11 – انتدب شيخا –مديرا– للمعهد الديني بالعرائش سنة 1952م ثم خطيبا وواعظا بمساجدها.

12 – عين عدلا قابضا بالمحكمة الشرعية بالعرائش سنة 1961م.

13 – انتدب رئيسا لفرع رابطة علماء المغرب سنة 1979م بالعرائش.

14 – لـه مؤلف حول تاريخ مدينة العرائش بعنوان : العرائش كما يراها المجلس الجماعي.

15 – لـه ديوان شعري سماه : "في غمرات النضال"، تبنته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية سنة 1999م في انتظار طبعه.

16 – اهتم بالمسرح أثناء دراسته بفاس، حيث كتب عدة مسرحيات إبان تأسيس الحركة الوطنية سنة 1937م منها رواية العامل سنة 1942م.

17 – أثرى صحف حزب الإصلاح الوطني وغيرها بكتابات وطنية وسياسية ودفاعية وتوجيهية انطلاقا من سنة 1937م.

18 – كتب بانتظام في جريدة الميثاق ومجلة الإحياء لسان رابطة علماء المغرب.

19 – ساهم بجانب مولاي أحمد الوكيلي رئيس الجوق الوطني للموسيقى الأندلسية في إعداد الكلمات الموزونة على قياس الصنائع الأندلسية في كل نوباتها وفي جميع المناسبات الدينية والوطنية لمدة 14 سنة وهي مسجلة بالإذاعة والتلفزة المغربية.

20 – وافته المنية يوم الأحد 1991/10/27 بمصحة طنجيس بطنجة، حيث دفن بجوار زوجته وابنته أسماء بمقبرة سيدي علال بن أحمد العسري بمدينة العرائش حيث توجد سكناه. تغمده الله برحمته.

عبد الكبير الطود

القصر الكبير ورجالاته عبر التاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه،

بلاد لها نيطت علي تمائمي   وأول أرض مس جلدي ترابها
بلادي وإن جارت علي عزيزة   وأهلي وإن ضنوا علي كرام

القصر ورجاله، رغم عراقته ورسوخ قدم رجاله في جميع الميادين التي هي أجدر بأن يباهى بها ويفتخر قديما وحديثا بالتفوق فيها، يأتي على أفقه نسيج من البساطة والتواضع والملامتية –على حد تعبير الصوفية– فيغطي المباهج والمفاتن التي من شأنها أن تخلب الأنظار، وتشغل الأقلام والأفكار، حتى يظن القصري المفتون أن بلاده عديمة التاريخ، قليلة الآثار والأمجاد. ويبقى عنقه مشرئبا إلى العثور على تاريخ يعدد الحمامات والقصور والبساتين وغيرها من المظاهر الملهية والمآثر الدعائية كما قيل عن بغداد ودمشق وفاس والقاهرة، متناسيا أن وراء الأقلام التي تحبر ما تحبر عن تلك العواصم صناديق سوداء للإشادة والتنويه.

وإنه لا يسعني أن أتجاهل ما سبقني به في هذا المضمار، وما أتحفنا به الأستاذ المقتدر الدكتور عبد الكريم كريم من نوادر غالية ونصوص صحيحة هادية عن القصر الكبير. كما لا يسعني أن أتناول هذا الموضوع كمؤرخ راو للأحداث، فالتحدث عن بلدة هي بالمثابة التي وصفناها بها يكتنفه كثير من الصعوبات لا من ناحية النقل والرواية، ولا من جهة استعمال المقاييس الفكرية والاستنتاجات الهادية. إذ مدينتنا –كما تعلمون– غيرت معالمها أحداث طبيعية، وتغيرات جيولوجية وسياسية، وأتى القدم على كثير من آثارها العلمية، فصيرها أثرا بعد عين. وكل ما استطاع أن يصمد ويستمر ويبقى طابعا يرشد

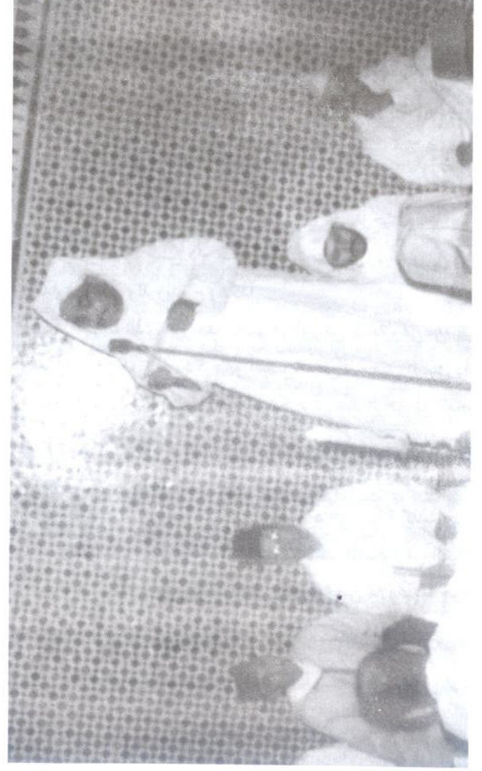
الـــباحث -بالإضـــافة إلى بقايا ضئيلة من الآثار- هو بعض العادات والتقاليد الأندلسية الواردة منذ عهد المرابطين والموحدين.

ومـــا اســتطاعت هذه المستوردات أن تجد مكانها في قلوب القصريين العامرة بحب النضال، وتنطلي على أحوالهم الــمنغمرة في مهام الرباط والجهاد بشـــقيه الأصغر والأكبر، إلا لسببين اثنين : أولهما أنها وردت على يد أشخاص يتقمصــــون روحانـــية الجهاد وهي روحانية استساغتها النفس القصرية بمنتهى الســـهولة والســـرعة، وتحوط بهم هالة الهجرة من الفردوس المفقود، وهي هالة مقدسة انحنت لها الجباه وأسلمت لها القلوب زمامها.

وثـــاني الســـببين هو ما عرف عن حضارة الأندلس وما وصفها به كبار المـــؤرخين والاجتماعيين، من أنها أدسم الحضارات وأثخنها لكونها خلاصة عدة حضـــارات تواردت على بلاد الأندلس، من هندية وصينية ورومانية وإغريقية وفارسية وغيرها.

نعـــم، رســـخت هذه الآثار في سكان القصر خصوصا، وفي غيرهم من سكان البلاد التي أمها الأندلسيون عموما، فكانت مساويها لا تقل عن محاسنها وكان حظ القصريين كافيا لأن يجعل منهم الصانع المتقن والعالم المتبحر والفنان الـــبارع والـــناقد البصير والمعتز الفخور بشخصيته ومناعته المتكاملة، ومن هنا تتزلق النفوس الخفيفة إلى المهاوي.

كمـــا أنهـــا عملـــت بعمق على رهافة الإحساس ورقة الشعور وعمق الـــوجدان، بحيث لولا الأصالة في الدين والارتواء الكافي من الأخلاق الوقائية كالصـــبر والثـــبات والعفـــة لكان لهذا المركب من العادات أثره الذي هو من لـــوازمه، مـــن أنانية وعنصرية وما إلى ذلك، غير أن روح التضحية بكل عزيز وغال هي التي عملت على صهر نفوس القصريين وتصفيتها من رواسب السوء وأخلاط البشرية.



محاضرة للمؤلف بمدينة سلا بمناسبة ذكرى نزول القرآن الكريم – 25 رمضان 1395 هـ

اســـم القصـــر الكبير على ما يظهر من تاريخ نشأته وظروف منشإه لا يـــؤدي المدلول المتعارف اليوم من كلمة "قصر" لأن نشأته ترجع إلى سنة اثنتين ومائـــة[1] هجـــرية على ما في الترجمانة. وهو تاريخ لم يعرف المغرب والمغاربة فيه معنى للقصور المشيدة كما عرفوها في ما بعد. إلا أن السكان الأصليين يطلقون كلمة "قصر" على ما نعني به اليوم دار السكنى وهو اصطلاح مشهور منذ القدم إلى الآن. فالمـــتجول في القبائل الجنوبية يجد أنهم يقولون مثلا عندما يقتربون من العمـــران، ها نحن اقتربنا من قصور القبيلة الفلانية، ويقولون : هذا قصر فلان، وذاك قصـــر الآخـــر. وقد وقع نظير هذا في عصرنا حيث كان أصل عدة مدن صـــغيرة، عـــبارة عـــن دار منســـوبة لشخصية بارزة كدار ابن العامري ودار الكداري، ودار ولد زيدوح وهكذا ...

على أن الذي أبرز هذا الاسم هو أمير من كتامة وهي من القبائل العتيقة وهـــذا الأخير هو الذي ذكره أبو الفضل عياض اليحصبي السبتي دفين مراكش في مداركـــه حـــيث قال : "أن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن العجوز الكتامي طلـــب العلم وسمع من أبيه، وكان أكثر مدته في قومه كتامة رأسا فيهم وهم له علـــى طاعة. وقتله المرابطون عند غلبتهم على كتامة ودخولهم قلعتهم الدمنة". وذكر أن نهايته لم تعرف، حيث إن المرابطين هاجموا قبيلته كتامة ودمروا قريتهم المعـــروفة بالدمنة، وهي على ما قيل فوق مدشر الصخرة من القبيلة الجرفطية. وكـــان عبد الكريم هذا قد التجأ إلى القلعة وتحصن بها وعندما حوصر بالقلعة،

[1] – سئل المحاضر عن سبب عدم تعرضه لتاريخ المدينة القديم –قبل الإسلام– مع أنها أكثر مدن المغرب رسوخا في القدم والحضارة، حتى إن الكاتب الكبير والباحث الشهير الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله عنون إحدى محاضـــراته عنها بعنوان : "القصر الكبير أول حاضرة في المغرب"؟ فأجاب رحمه الله : لا أهتم ولا أعتز بأية فـــترة تاريخـــية أو أية حضارة لم يكن أساسها الإسلام. على أن المصادر والمراجع المؤرخة لتلك الحقب من تاريخـــنا –علـــى ضآلتها وندرتها– محررة بأقلام وأفكار استعمارية معادية للمغاربة سواء قبل إسلامهم أو بعده. فبماذا سيعتز الإنسان إذن؟ أبخضوعه لحكم الرومان وغيرهم أم بفترة قضتها أمته في الجاهلية؟.

ألقـــى بنفسه من سورها وهو راكب على فرسه، فوقع على الأرض سالما، وهنا انقطع خبره.

وتقـــل في هذا الحين أخبار القصر الكبير ومراجع التعرف على ما كان مـــنه، إلى أن نجـــد عبد المومن بن علي الموحدي يتخذ من القصر الكبير منطلقا لغـــزو بجاية، فقد أقلقه ما حل ببلاد أفريقية من تنازع وتطاحن بين ملوكها من بـــني زيري الصنهاجيين، وبين عرب اتكاد وهزته رابطة الدين والجوار، فخرج مـــن مراكش إلى سبتة، واستدعى إليها فقهاء الأندلس بقرطبة وإشبيلية وأعيانها وجـــدد معهم التواصي بما لهم وما عليهم ورجع معميا على ملاحظيه ومرافقيه ومظهـــرا لهـــم أنه ينوي العودة إلى مراكش. وبطريقة لم تكن منتظرة دخل إلى القصـــر الكبير وفيه تفقد أحوال جيشه، وأخذ الأهبة والعدة، ونادى في الجيش بالتـــزام الحذر واليقظة دون أن يكشف عن وجهته لأحد، فاتجه صوب ملوية، وقصـــد تلمسان وقضى بها يوما واحدا، ثم عاد إلى بجاية فباغت أهلها على حين غفلة وبسط نفوذه عليها إلى ما شاء الله.

هـــذا بالإضافة إلى ما أولاه يعقوب المنصور بعد عبد المومن مما سنورده بعـــد يثـــبت لـــنا ما كان يوليه أبطال الموحدين من أهمية لمدينة القصر الكبير وخصوصا من الوجهة الاستراتيجية في عصرهم الذي يعد عصر المغرب الذهبي. ففـــي ســـنة أربـــع وثمانين وخمسمائة، وفي الوقت الذي كان فيه الملك العظيم يعقـــوب المنصـــور الموحدي ماسكا بخناق الإسبانيين بالأندلس، أعاد ابن غانية كرته على جوانب الإمبراطورية المغربية، مستعينا بالمرتزقة من عرب رياح وبني هـــلال الـــذين جعلـــوا أنفســـهم رهن إشارته، فتصدى لهم يعقوب المنصور، وحشرهم بالبسيط الأفيح الممتد من القصر الكبير إلى أزغار من البلاد المعروفة الآن بالشراردة، إلى سواحل البحر وهم المعروفون بالغرب وبني حسن والخلط. ومن هذه المميزات الخاصة وأمثالها مما فعله بنو مرين وبنو عمومتهم الوطاسيون،

استلفت القصر الكبير نظر المهاجرين من عدوة الأندلس، نظرا للصلة الوثقى التي كانت وقتها قائمة بين العدوتين.

ويأذن الله بانتهاء عهد الموحدين وبزوغ الدولة المرينية بعد أن خلد الموحدون اسمهم على جدران الجامع الكبير الذي لازال ناطقا بعظمتهم شاهدا بما ناله القصر الكبير في عهدهم من حظوة ومكانة، فنجد ثاني ملوك بني مرين، وهو السلطان أبو سعيد عثمان بن عبد الحق يعتلي العرش المريني فيجد قواه منهوكة ومرافق جهاده متوهنة فيضطر لضرب الخراج على الرعية جبرا للخلل، وإتماما للعمل، فيقرر فرض الخراج على القبائل بنسبة معينة، وعلى أمصار المغرب (كذا) بنسبة تناسب مقامها، ويجعل أمصار المغرب في وقته هي : فاس، مكناس، تازة، قصر كتامة. وهذا مما يؤيد ما صدرنا به الحديث من أن شكل القصر العمراني لم يبق بالحالة التي كانت تؤهله لأن يكون من الأمصار الممتازة.

ومن الأنسب هنا أن نعيد التذكير بأن هذه العناية من ملوك المغرب وما كان يطبع حياة القصريين من جد وشدة في الحق والدين هو الذي أمال أعناق مهاجرة الأندلس وخصوصا منهم من كان على منوال القصريين، ومن بين الذين حملوا بين أضلعهم نيران المرارة على فراق فردوسهم إلى بلد صامت جاد مخلص كبلد القصر الكبير.

ولنتيمن بذكر بعض مشاهير القصر مبتدئين برافع لوائه علما وصلاحا، ودينا ووفاء، ذلكم هو الشيخ الصالح، العالم الناصح، أبو الحسن علي بن خلف بن غالب القرشي، شيخ الصوفية في وقته ونافع عيال الله بنصحه وحثه. ترجم له أبو يعقوب يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن التادلي المتوفى سنة 627 هـ. المشهور بالزيات في كتابه : "التشوف إلى رجال التصوف" في الترجمة رقم 81 قال : "نشأ الشيخ بشلب وقرأ بقرطبة واستقر أخيرا بقصر كتامة. كان رحمه الله من أيمة زمانه وقادتهم في العلم والدين والصلاح. أخذ التصوف عن

شيخه الإمام العالم العارف الصوفي الأديب أبي العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي المعروف بابن العريف المتوفى بمراكش سنة 539هـ. والذي أصله من طنجة، ولكنه رحل إلى الأندلس ثم عاد إلى المغرب في قصة امتحان كثيرا ما يتعرض لها ولأمثالها أهل الفضل والدين".

ومن تلاميذ شيخنا أبي الحسن علي بن غالب رضي الله عنه الشيخ العارف الصالح أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري السبتي القصري، قال التادلي : "هو من أهل سبتة وقدم مراكش واستشهد في وقعة العقاب بالأندلس سنة 609هـ. وكان يمير المجاهدين من أرض سبتة ومن بلاد الأندلس ويحمل إليهم ما يحتاجونه برباط إيروكان مدفن أبي يعزى. حكى أبو مدين الغوث أنه جاء بصحفة كبيرة من عود من سبتة إلى رباط أبي يعزى بجبل إيروكان وهي محمولة على رأسه، وأعطاها أبا يعزى فكان يطعم بها الضيفان. وحكى أبو الصبر هذا أن شيخه أبا الحسن علي بن غالب ورث عن أبيه مالا يقدر باثني عشر ألف دينار خرج عنه كله لله تعالى فلامه على ذلك شيخه ابن العريف وقال : "هلا طهرها الثلث يا أبا الحسن؟"

ومعلوم لدى القصريين أن بالقصر بعض أحباس تنسب لمولاي علي بوغالب[1]، منها داره التي قيل إنه كان يسكنها بدرب عشواء قرب الباب المنسوبة إليه من أبواب الجامع الكبير، ومنها فندق مولاي علي بوغالب بالجزارين، الذي صار اليوم أماكن للسكنى. وثبت أنه كان خطيبا ومدرسا بالجامع الكبير، وقال أبو الصبر تلميذه هذا : كنا نحضر مجلس أبي الحسن فكان يحضره معنا أشخاص لا نعرفهم.

[1] – سمى المحاضر شخصية العالم المتحدث عنه –هذه المرة– بالاسم المشهور والشائع على لسان عموم القصريين، وهو : "مولاي علي بوغالب" بدلا من الاسم الحقيقي : "علي بن خلف بن غالب".

ومن تلاميذ الشيخ أبي الحسن، الشيخ العالم العارف أبو محمد عبد الجليل بن موسى القصري، كان عبدا صالحا كثير الاجتهاد في العمل دائم العبرة، وهو من أهل قصر كتامة، وبه يعرف المسجد الذي بدرب الأعلاج، وهو مسجد سيدي عبد الجليل القصري. ويقال إنه ألف كتابا سماه شعب الإيمان كان موجودا بخزانة أبي زيد الهزميري بالقصر الكبير مخطوطا[1]، يقول التادلي : "كان بقصر كتامة مأوى للمريدين، فنالته محنة أخرجته من بلده، فاستقر بسبتة عام 603هـ". وذكر التادلي نقلا عن أبي علي حسن بن محمد الصواف الغافقي قال : "صحبت أبا مدين ثلاثين سنة فحكى يوما بداية أمره فذكر أنه خرج من قطناية بالأندلس، قاصدا المغرب فلقيه رجل صالح وأمره أن يعود إلى الحاضرة ويلتزم العلم لأن الله لا يعبد إلا بالعلم. قال : فرجعت وبعد مدة قصدت فاس عن طريق سبتة فلقيت بها الأشياخ وأخذت عنهم كل ما يمكنني، وذكر من جملتهم الشيخ أبا الحسن علي بن غالب، قال : أخذت عنه سنن الترمذي".

ومن الأيمة المشهورين بالقصر الكبير، الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي شيخ اللخمي صاحب كتاب روضة الأزهار في التوقيت، عرف بابن الحجام، وصفه التادلي بقوله : "كان حسن الموعظة طيب النغم دائم العبرة وكان مجلسه كنفا للمريدين وأهل الدين، يأوون إليه، إذا أنشد بصوته بديع الشعر شاق وراق، وأثار كوامن الأشواق. وإذا قص صحيح الخبر، لم يبق ولم يذر. وكان وعظه بجامع القصر الكبير يوم الجمعة فتاب على يده من أراد الله به خيرا".

[1] – طبع مرتين بالقاهرة.

ومن الصالحات الشهيرات في هذا العصر، الولية الصالحة الشهيرة السيدة فاطمة الأندلسية. ذكرها التادلي دون أن يذكر شيئا عن نسبها من جهة أبيها إلا أنها من أهل قصر كتامة وأنها عاصرت محمد بن محمد بن جميل القصري المعلم، وأبا عبد الله التاودي المعلم، وأبا زكرياء يحيى السايح، وأبا حفص عمر بن عيسى الكتامي والفقيه ابن صالح. ولقيت كلا من الشيخ أبي يعزى والعارف أبا مدين الغوث والعارف أبا محمد عبد الله بن عبد الملك البياتي. وهذا هو الذي شاهد من كراماتها وقال في حقها : رأيت امرأة كهلة مخضوبة اليدين والرجلين بالحناء، إذا رآها من لم يعرفها لم يظن أنها من الوليات. ورأى من كراماتها أنه مرض مرضا شديدا فعزم على زيارة أبي يعزى، وفي منامه رأى قائلا يقول له : لا تذهب إلى أبي يعزى واذهب إلى فاطمة الأندلسية فستشفى من مرضك وسترى عندها أبا يعزى. فقام من نومه وذهب لزيارة الأندلسية فأخبرته بما رآه في النوم وعالجته، وبينما هي في معالجته إذا بأبي يعزى داخل عندها.

ومن شيوخ القصر أبو يحيى ابن الملاح قال صاحب المرآة : "وقبره مقارب لقبر فاطمة الأندلسية وبمقربة منهما سيدي شعيب، والمعروف عن سيدي شعيب هذا، أنه والد بني أولاد بومدين كتاب دولة بني مرين، وأولاد بومدين هؤلاء نسبهم ابن خلدون لقبائل كتامة المجاورين للقصر الكبير"، وقال في حق سيدي شعيب هذا : أنه كان شيخا متحليا بالدين ومشتهرا به ولما تغلب بنو مرين على ضواحي المغرب اختار بنو عبد الحق شعيبا هذا لصحبتهم فعظم في الدولة قدره وتربى بنوه بقصر كتامة، ومات شعيب هذا عام 697هـ.

ومن أبرز شخصيات القصر الكبير التي ذكرها الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد بن العزفي في فهرسته، الفقيه الجليل قاضي القصر الكبير أبو تميم المعز بن منصور الزهيلي. قال فيه ابن العزفي : "ولي قضاء قصر كتامة وهو في حكم القرى، فلم يزل يربي أهله ويرشح أذكياءه للشهادة وطلبته للخطط، ويحوط

سكانه ويسعى في مصالحهم ويقهر الطغاة ويعاقب الجناة، ويستعين على الظالمين الذين لا يقدر على الانتصاف منهم بالولاة والسلطان، ويعين تجاره وأهل الفلاحة والحراثة، حتى انجبر جمهورهم، واستغنى أكثرهم، فاستوطنه أكثر الرحالين، وتنافس في سكناه أكثر المسافرين ولجأ إليه كثير من فلذ بلاد الأندلس وبخاصة أهل غربه كشنترين واشبونة وقصر أبي دانس عمره الله ويابورة جبرها الله فاتسع فناؤه وكثر جزاؤه وأسمع نداؤه وارتفع بناؤه فصار في عداد البلاد، وصلح لاتخاذ الطريف والتلاد". وهذا الوصف الكاشف عن مراحل قطعها القصر الكبير من الناحية الاقتصادية والاجتماعية، قد جرى ما بين عهد أبي يوسف يعقوب المريني وعهد والده.

وفي هذه الفترة بالذات، يطالعنا أبو القاسم الزياني في ترجمانته بحركة مفاجئة تتغشى القصر الكبير ونواحيه، وتزوده من جديد بتطعيم آخر من التراث الأندلسي، فيحمل إلينا قصة استبدال القصر الكبير بمقاطعة هي مقاطعة وادي آش التي أنجبت كثيرا من العلماء والأدباء، يقول الزياني : "قال أبو عبد الله بن الخطيب في كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة : دخلت قصر كتامة وزرت مقبرة الرؤساء من بني اشقيلولة وهي قبة ضخمة البناء رحيبة الفناء نسيجة وحدها بذلك البلد، وبها قبر سنامه رخام مكتوب عليه هذه الأبيات :

قبر عزيز علينا ... لو أن ما به يفدى
أسكنت قرة عيني ... تربا وغطيت لحدا
ما زال حكما عليه ... وما القضاء تعدى
فالصبر أحسن ثوب ... إذا الحبيب تردى

وعند رأس السنام لوح قائم من الرخام كتب فيه : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله

وصحبه وسلم تسليما. هذا قبر الرئيس الجليل، الأعلى الهمام الأوحد الأصعد، المبارك الأسنى الأسمى الأحفل الأكمل المجاهد الأرضى المقدس الأطهر، المرحوم أبي عبد الله الرئيس الجليل، المجاهد الهمام الأصعد المبارك الأحظى الأسمى المعظم المرفع، الأحضى المقدس المرحوم أبي إسحاق إبراهيم بن اشقيلولة وهو الذي كان أميرا بوادي آش إحدى قواعد الأندلس ونشرت عليه أعلام سلطته وضربت الطبول في أريكته، وجاهد منها العدو فعصمه الله وظهر على خاله سلطان الأندلس وأقام في سلطنته نحوا من ثلاثين سنة، ثم قام بدعوة من الملك الأعلى ملك المغرب، أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني، فأمره نصره الله أن يتخلى عن مدينة وادي آش وينتقل من الأندلس إلى العدوة ويعوضه غيرها من إيالة العدوة ولما انتقل من الأندلس ولاه هذه المدينة وعمالتها، فاستقر بها إلى أن اخترمته المنية رحمه الله تعالى ورضي عنه".

فمن هذه الأفواج المتلاحقة على القصر الكبير، انطبعت في سائر مرافق الحياة القصرية أخلاق وآداب وتقاليد تبتدئ من العبادات وتنتهي بالولائم والمآتم. فزخرفة مساجدنا وإجلاس علمائنا ووعاظنا على كراسي منمقة، وإضاءة الشموع حواليهم، وجعل خطيبنا في الجمعة أشبه شيء بالأمير في زيه، ومراسيم دخوله وخروجه وإرفاقه بعون يحمل العصا ويضعها في احترام ووقار وتؤدة، ويقوم في إجلال وإكبار لتمكين السيد الإمام من عصاه عند الاقتضاء واختيارنا لأعذب الألحان وأرق الأصوات لتشنيف أسماعنا بالليل وعلى رؤوس المآذن بأشهى النغم الممزوج برقيق الشعر ولطيف المعاني تخاطبنا منادية الأرواح والمشاعر :

قم من منامك هذا الفجر قد طلع ‏ ‏ ‏ ‏ وانظر إلى حكمة الخلاق ما صنع

❖ ❖ ❖

يا نائما غافلا قد غرك الأمل ‏ ‏ ‏ ‏ إلى متى برقاد الليل تشتغل

أما ترى الفجر قد لاحت عساكره ‏ ‏ ‏ ‏ يقودها كوكب بالنور يشتعل

وقم ترى الليل قد ولت جحافله ‏ ‏ ‏ ‏ مهزومة بضياء الصبح تنجدل

ثم لا ندري كيف عدلنا عن صغرى الإمام السنوسي التي شرع دراستها بالمغـــرب عالم كبير وقدوة شهير، وبطل من أبطال تاريخ المغرب الشيخ الإمام، المجاهد الهمام أبو عبد الله سيدي محمد الورياكلي القصري رحمه الله تعالى ورضي عنه في قصة سنوردها إن شاء الله. نعم كيف عدلنا عنها وهي تقول : الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله. اعلم أن الحكم العقلي ينقسم إلى ثلاثة أقسام واجب وجائز ومستحيل، فالواجب ما لا يصح في العقل عدمه والجائز ما يصـــح في العقـــل وجوده وعدمه، والمستحيل ما لا يصح في العقل وجوده، في منتهى السلاسة والبساطة، واستهوتنا المنظومة الرجزية الجميلة اللحن والإيقاع:

وبعد فالعون من الله المجيد ‏ ‏ ‏ ‏ في نظم أبيات للامي تفيد

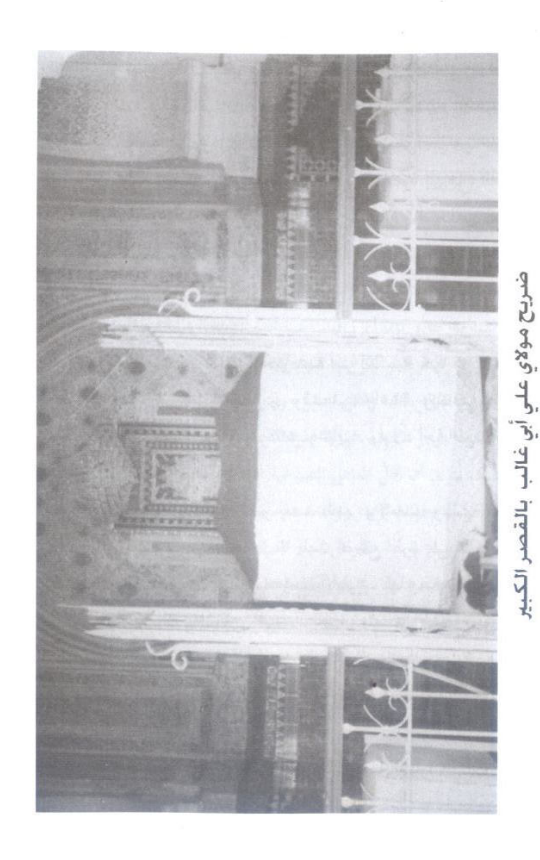
في عقد الاشعري وفقه مالك ‏ ‏ ‏ ‏ وفي طريقة الجنيد السالك

وما الذي حدا بنا إلى أن نستدبر مدونة سحنون واختصار البرادعي ومختصر ابن الحاجب، ونستعيض عن الكل بأرجوزة الغرناطي السلسلة الجميلة:

وبعد فالقصد بهذا الرجز ‏ ‏ ‏ ‏ تقريب الأحكام بلفظ موجز

آثرت فيه الميل للتبيين ‏ ‏ ‏ ‏ وصنته جهدي عن التضمين

وكـــيف استطاع القصريون أن يتخلوا عن عوائدهم الجادة في ولائمهم وأعراسهم من رقص شعبي وأصوات البنادق تدوي في الفضاء واقتصار عـــلى



ضريح مولاي علي أبي غالب بالقصر الكبير

قراءة الفاتحة عند الاحتفال بالدخول، واستطابوا بعد ذلك إنشاء التراتيل والأهازيج واختيار أنسب الطبوع وأليقها بالمقام، كطبع العشاق وعراق العجم لوليمة الزفاف ومواكب صلاة العيدين، وطبع الاصبهان لتشييع الجنائز.

كل هذه المستوردات اللائقة، حملها إلينا علماء أجلة من خيرة رجال الأندلس أو تجار كبار أو صناع حذاق حملتهم الهجرة إلى هذه العدوة التي كانت صفحة بيضاء نقية، قابلة لكل ما يرسم على بياضها من خير. وكثر تردد الأسر الأندلسية على اختلاف مستوياتها الاجتماعية على هذه البلدة. مما جعلها نسخة طبق الأصل من بعض البلاد الأندلسية، إلا ما كان من طابعها الخاص وهو طابع الجد والتعدد.

وهكذا استوطنت القصر الكبير عدة أسر أندلسية، منها من لازال عقبها موجودا لحد الآن كأسرة القنطري، وقشتيليو، وأعيان، والغافقي، والعريف. ومنها ما اندثر كأسرة فندريرو وقردناش وغبريرا، وأولاد أجخاطن الأنصاريون وأولاد خويا وغيرهم...

والمتجول في القصر الكبير بقصد التدبر والإمعان، والذي يذكر بعض الآثار التي بقيت إلى عهد الحماية، لا يلبث أن يقع نظره على مجموعة صناعية واقتصادية متكاملة الأجزاء متناسقة الأطراف فهذه ساحة النجارين يليها مباشرة سوق القشاشين، فمهنة الزنايدية، وأمامها الحدادين، والسراجين والخرازين والطرافين، فسوق الغزل وسوق النسيج -الغطايين- ومجمع الخياطين (التربيعة) فالخراطين فالنخالين (الشطاوطية) ، فالقراشلية -وهي مهنة خاصة باليهود- فالقزدارين.. إلخ.

ومن المعلوم أن الأراضي التي بنيت عليها العمارة الحبسية التي تضم إدارة الأمن حاليا وما تحتها من متاجر كانت تدعى : براح الخياطين حسب ما هو ثابت في الحوالات الحبسية وهكذا. وفي كل حي مسجد وكتاب ومعمل

للنسيج ونجد في غالب الأحيان هذه المساجد تحمل أسماء أصحابها ومنشئيها وقد يكون من هؤلاء الصناع الذين بلغوا شأوا بعيدا في ظل صنائعهم النافقة. فبالقصر مسجد الشماع[1]، ويوجد بالقرب من معمل الشمع قرب دار غيلان، ومسجد النجار[2]، وهو بالحمل المعروف الآن بالسوق الصغير ومسجد أولاد مصباح بشارع محمد الخامس، ومسجد ابن رحمون، ومسجد اللهاني[3] ومسجد الجريري. وبالمناسبة فالمؤمل من رجال السلطة الواعين، أن يعملوا على حفظ هذه الأسماء بالتعاون مع وزارة الأوقاف بأن يضعوا على باب كل مسجد أو بمدخله عنوانا يحمل اسمه الموضوع له في حوالة الأحباس القديمة. وإذا أمكن إثبات تاريخ بنائه كان أتم وأفيد. كما تجدر الإشارة إلى أنه وقع تناسي أسماء بعض الشوارع والطرق والممرات، سواء داخل المدينة أو بضواحيها ومزارعها، وهذا يؤدي إلى ضياع قيمة وثائق الناس ورسومهم بحيث تصبح عديمة الفائدة.

ولنعد إلى وصف عراقة هذه المدينة ورسوخ قدمها في عالم العمران والاقتصاد، لنرى أن جل المعامل الصناعية الهامة محبسة من طرف صاحبها إذا يقول : "حبسها حبسا مؤبدا ووقفا مسرمدا لا يتبدل عن حاله، ولا يخرج عن سبيله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين". وبهذه الحالة يصبح هذا الحبس حقا مشاعا لكل مواطن يأنس من نفسه القدرة على هذا العمل. فهذه معامل صناعة الجلود، وهي من الصنائع الهامة والأساسية لكل مجتمع، ومعامل صنع الآجر والفخار، ولا تخفى حيويتها ومكانتها بالنسبة للعمران والحضارة، ومعامل النّسيج.

[1] – من الغريب أن مسجد الشماع، أطلق عليه البعض أخيرا : "مسجد للا بنت أحمد" لكون امرأة غير معروفة قد دفنت به، فلما نوقشوا في شأنها قالوا : ب للا "فاطمة" بنت أحمد وكفى..! وما هو في الحقيقة إلا مسجد اللماع.

2 – هو ما أصبح اليوم يسمى : مسجد "سيدي المحمد الشريف" تحريفا لمجرد مجاورته لضريحه.

3 – يقع في نهاية زقاق النيارين عند بداية ساحة المرس.

ومن هنا أصبح الرأي العام يتكون في هذه المدينة من علمائها و شرفائها وأمـناء حرفها وشيخ الفلاحة وشيخ الرماة الذين توجد أحباس موقوفة عليهم لتعليم الرماية. أما شيخ الفلاحة فزيادة على كونه يرجع إليه في معرفة الأشجار ومنافعها ومضارها وتمييز التربة الصالحة والأكثر صلاحية، زيادة على هذا فهو الـذي يحدد الوقت بالضبط لبيع الخضر والفواكه، حتى لا يتضرر أحد بأكلها قبل إبانها فلا سبيل إلى بيع شيء أو أكله علانية إلا بعد إطلاقه من طرف شيخ الفلاحـة بواسـطة منادي المحتسب. وكل من خالف يعاقب بمصادرة بضاعته الـزائفة وتغريمه. والأعراف العامة بالقصر الكبير لا تختلف في شيء عن أعراف فاس، والعمل الفاسي كما هو معلوم، إنما هو امتداد لما ورد عن علماء الأندلس وتجـارهم وصـناعهم. ويكفـي القصر الكبير اعتزازا أن يكون مدونو العمل الفاسـي ومصـنفوه هم أسرة الشيخ الكبير والعالم الشهير أبي المحاسن يوسف الفاسـي القصـري مـولدا ونشـأة وتربية، الذي هو مصدر إمدادهم ونقطة امتدادهم وهو مبدأ سرهم ومنبع عرفانهم وخيرهم. وقد كان جده أبو الحجاج الفاسي هو الذي جعل القصر وجهته حقيقة منذ عام **887** هـ، بقصد التجارة وعلل حفيده أبو حامد العربي الفاسي صاحب المرآة ذلك بكون القصر إذاك كان مقصـدا للتجارة وسوقا تجلب إليه بضائع العدوتين وسلعهما، إذا كان ثغرا بين بـلاد المسلمين وبلاد النصارى، تحط به رحال تجار المسلمين من آفاق المغرب، وتجارة الحربيين من أصيلة وطنجة والقصر الصغير وسبتة، ولأنه كان محل عناية سـلطان المغـرب إذ ذاك، الشـيخ أبي زكرياء يحيى الوطاسي ويزيد أبو حامد قائـلا : "إن القصر قاعدة بلاد الهبط التي كانت موقع شرارة السلطان المذكور

ومشـبة ناره، وموشج عصبيته، مع مجاورته لبلاد الحرب[1]، فكان نظره مصروفا إليه، واختصاصه موقوفا عليه وتقفى بنوه بعده مذهبه فيه".

هـذه منزلـة القصر الكبير الاقتصادية والدفاعية على عهد الوطاسيين، ويرجع أبو حامد سبب اشتهارهم بأولاد الفاسي وهم بالقصر الكبير، إلى كثرة ترداد أبي الحجاج هذا على القصر في عمل التجارة. أما الشيخ أبو المحاسن فإنه مـن موالـيد القصر الكبير هو وأبوه. فقد ولد أبو المحاسن بالقصر الكبير عام **637** هـ وبها نشأ وحفظ القرآن بضبطه ورسمه وبحرف نافع على شيخه الفقيه الصـالح أبي الحسن علي بن العربي الخيري القصري دفين مسجده المعروف به بطـرف القطانين. وأخذ العلوم الظاهرية عن شيخه الأستاذ الفقيه أبي زيد عبد الرحمان بن محمد الخباز القصري المتوفى عام **969** هـ، قرأ عليه رسالة ابن أبي زيـد القيرواني. وأبو زيد الخباز هذا وصفه أبو حامد بقوله : "فاضل مشارك له عدة تآليف. ووصفه بالاستاذية في عرف الأقدمين يدل على تخصصه في فن من فنون العلم وتفوقه فيه. وقد كان من تآليف هذا الشيخ شرح على التفصيل في الطرق العشر للشيخ أبي عبد الله بن غازي. وقد أخذه رواية ودراية من الشيخ الفقـيه الحـافظ أبي الحسن علي بن عيسى الراشدي عن ناظمه". ودرس أبو المحاسن كذلك بفاس على عادة القصريين وسائر الطلبة المغاربة، وأخذ عن عدة شيوخ بها، ثم عاد إلى القصر فرافقه الولي أبو زيد عبد الرحمان بن عياد المجذوب الدكالي. وكان يتعهده منذ صباه لما توسم فيه من مخايل الصلاح. فأسلم الشيخ أبو المحاسن قياد نفسه على عادة رجال التصوف إلى شيخه المجذوب وتخلى عن إرادتـه له، مما أثار انتقاد بعض رجال الشريعة...ولرجال التصوف في مثل هذه الانـتقادات مكاسب تنصلح بها نفوسهم وتتقوى بها بواطنهم، وقد كان القصر

1 – بلاد الحرب : إطلاق يعني بلاد النصارى

الكبير كما أسلفنا مكتظا بأولئك الذين عملت في نفوسهم معايب الحضارة الأندلسية عملها، فاستحال وعيهم وذكاؤهم واعتزازهم إلى أنانية وتضخم في الشخصية، الأمر الذي كان له أسوأ الأثر في كافة الأماكن التي وطئها الأندلسيون. وخلاصة القول، أن ما جرى للشيخ أبي المحاسن بالقصر الكبير ومع أهل القصر الذين يغلب عليهم رغم الاستيراد الأخلاقي والمادي طابع حب الإخلاص والوفاء للمثل العليا والقيم الروحية، هذا الواقع ليس بشيء أمام ما جرى لعظماء زاوية الدلاء نور الله أضرحتهم، وأثابهم على وفائهم لله والدين والوطن، وما جرى أيضا لمن سار على نهجهم من الأقطاب الناصريين الجعفريين وتلامذتهم كأبي عبد الله العياشي وأبي العباس أحمد الخضر غيلان وأخيرا عالم المغرب وأديبه العلامة أبو علي اليوسي، فهذا من ذاك ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا.

ولقد تكرر في كلامنا ذكر صغرى الإمام السنوسي، والتزمنا أن نذكر قصة اشتهارها بالمغرب، وإقبال الطلبة على حفظها ودرسها سيما والقصة تشمل التذكير بعلم من أعلام القصر الكبير، فقد نقل أبو القاسم الزياني في ترجمانته عن صاحب الدوحة قال : "قال ابن عسكر : كان الشيخ العلامة الصالح أبو عبد الله سيدي محمد الورياكلي القصري يدرس بمسجد القصر الكبير وفي زمن الخريف يتوجه إلى العرائش قصد الجهاد والمرابطة ويعود في فصل الشتاء لمدارسة العلم وحين عاد مرة إلى القصر لمتابعة تدريسه لم يجد بمجلسه من طلبته غير القارئ يعني السارد فسأله عن الطلبة فأجابه بأنهم مجتمعون على رجل بمقصورة المسجد، يزعم أنه عيسى بن مريم؟! وأنه يظهر للناس عجائب تذهل العقول ويحضر أمامهم أنواعا من الأطعمة لا يدري مصدرها وقد انخدع له جل السكان، وكلهم في خدمته لا يفارقونه. فقال الشيخ رحمه الله قم بنا إليه، فوجده ملتفا بالعديد من الخلائق، وحين رأوا الشيخ

فتحوا له الطريق حتى جلس أمام المتنبي فسأله من أنت؟ قال عيسى بن مريم قال هل تعرف الواجب في حق الله والرسول؟ والجائز والمستحيل؟ فلم يجب بشيء. قال ومن يشهد لك أنك عيسى بن مريم؟ فأجاب بان هذه الصومعة تشهد لي فسلها تخبرك، وأشار بيده إلى صومعة المسجد، فنهض الشيخ قائما قائلا : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم، ولطمه برجله على وجهه وقال للحاضرين : شأنكم بالكافر، فضربوه إلى أن غاب عن حسه وقال جروه للمزبلة وألقوه عليها حتى يشاهده الناس. وبعد أن شاهده الجميع أمرهم بسجنه أربعة أشهر وبعد السجن أعلن توبته وندمه للشيخ، فقبل منه على أن يخبره ببداية أمره وحقيقته، وبعد أن جدد إسلامه بالتشهد وأعلن توبته، قال إنه رجل اسمه برزيز لقيه جني يوما، فصحبه وأمره أن يدعي النبوة، ويبقى الجني في خدمته يأتيه بكل ما يطلبه منه، وينطق له الجمادات شهادة على ادعائه، وقد بقيت معه على هذا الحال، لا أطلب منه شيئا إلا أنجزه، ولا معجزة إلا أظهرها حتى كانت قضيته مع الشيخ ففرعنه الجني وتركه لهوله وهوانه. ولما تأكد الشيخ من توبته، أمره بمغادرة القصر الكبير فخرج، وبعد الحادثة بسنتين كان الشيخ مع بعض تلامذته يتجولون بأطراف القصر، وبمحل يقال له غدير البرقة خارج باب القصر الكبير وإذا بطالب على كتفه خنشة (كذا) يقع على حافر دابة الشيخ يقبلها ويقبل أقدام الشيخ فسأله الشيخ من هو؟ قال برزيز الذي كتب الله له التوبة على يدك... كنت مدة معتكفا على حفظ القرآن وقد حفظته وأتيت لآخذ عنك العلم من جملة تلاميذك فقبله الشيخ ولازمه وكان من خيرة أصحابه وحين انتقل أبو عبد الله الورياكلي إلى فاس ونال بها شهرة كبيرة، جعلته من رؤوس العلماء بها، ومن المراجع المهمة في حل مشاكلها قدم عليه طالب من تلمسان لعله صاحبنا برزيز فسأله الشيخ عن علمائها فأثنى له كثير الثناء على الشيخ أبي عبد الله محمد السنوسي صاحب العقيدة، وأخرج له

كراسة من جيبه فيها عقيدته الصغرى فقرأها الشيخ الورياكلي عن آخرها، وقال : الله اكبر هل بلغ محمد السوسي درجة التأليف، بالأمس تركته بالمكتب؟ وقال : ما خرج هذا الكلام إلا من صدر منور! ولله علي ألا تفارقني هذه العقيدة.

يقول ناقل القصة : كان هذا سببا في إقبال المغاربة على صغرى الإمام السنوسي واعتنائهم بها حفظا ودرسا، لمكان الشيخ الورياكلي في قلوبهم، ولاعتدادهم بوفائه وهيامه بحب الخير لبلاده.

سبق أن تعرضنا لتاريخ مجيء أبي الحجاج الفاسي جد أبي المحاسن وهو عام 887 هـ. يأتي هذا التاريخ بعدما أعلنت المسيحية أول هجوماتها على شواطئ المغرب واحتلالها لثغر سبتة ويعتبر هذا الهجوم أول هجوم على الشواطئ منذ الفتح الإسلامي فقد ظلت شواطئ المغرب مهابة الجانب من طرف جيرانها مسيجة بذلك السياج من الهيبة التي أضفاها الإسلام على معتنقيه، إلى أن أخذت عقارب الخلاف تدب بين المسلمين في الأندلس وتونس والجزائر، فانطلق كما قلنا في غير هذا الحديث شيطان الاستعمار من قمقمه، وتوالت الحملات على أطراف المغرب من شماله وغربه، وهنا لعب القصر الكبير ورجاله دورهم في حماية ثغر العرائش ومولاي بوسلهام، فكان رجال القصر الكبير يقسمون سنتهم بين أعمالهم الشخصية وبين الرباط إما بالعرائش وإما بمولاي بوسلهام. بعد أن كانوا يشدون الرحال إلى ثغور بعيدة كثغر تيط بدكالة، وثغر البير الجديد قرب الجديدة أيضا وثغر شاكر وغيرها. ففي عهد الأشراف السعديين أصبح القصر الكبير ملتقى المجاهدين، والمركز المناسب لإقامة المعارك الكبرى الشبيهة بمعارك اليرموك والقادسية والزلاقة والأرك. ويتجلى في شيء من الوضوح ذلك الوازع الذي كان يحدو قادة المرابطين والموحدين وبني مرين، أن يجعلوا مدينة القصر في أحرج ظروفهم بمنزلة ظهر الحامية بالنسبة للثغور التي

يعد القصر الكبير معبرا لها. وعندما شاهد القصريون وغيرهم من المغاربة ما حل من خلاف وتنافر بين بني الأحمر وبني زيان وبني مرين، توقعوا سوء الحال، وتوجسوا خيفة من المآل، وشعروا بالمسؤولية الفردية الملقاة على عاتقهم، وهم أولئك الذين كانوا يتحملون المشاق العظيمة للوصول إلى الربط النائية حينما كانت نواحيهم آمنة وكانت بلدتهم مأوى للمريدين، وأصيب من جراء ذلك أفراد يعز على البلدة أن تحرم من علمهم ونضالهم فتوافدوا على الثغور يحرسونها ويمدونها بما تحتاج إليه.

وتجدر الإشارة إلى أن جماعة من المجاهدين الأبطال استشهدوا في نضال العدو بصفة اندفاعية دون أن تظلهم راية أمير أو قيادة قائد، احتسابا لله واستجابة لروح النضال المتغلغلة في نفوسهم والمتوارثة عن جدودهم الغر الميامين. فمنهم المجاهد البطل أبو عبد الله محمد القصري المعروف بسقين فقد كتب الله له الشهادة برباط مولاي بوسلهام، والشيخ الصالح أبو علي الحسن بن عيسى المصباحي دفين الدعداعة وقريب الولي الصالح سيدي أبو القاسم بن الزبير المصباحي الشاوي الزناتي دفين القصر الكبير وممن أسر بيد العدو، والد صاحب الدوحة، الشيخ الصالح أبو الحسن علي بن مصباح الحسني، عرف بابن عسكر ولعل هذه كانت بداية قصة ولده مع المسلوخ... ومن هذه الأحداث ندرك أن شاطئ مولاي بوسلهام، لم يكن معدا للتنزه الفسحة، وإنما كان رباطا للقصريين وعلمائهم وصلحائهم، يجعلونه ملتقى في حالتي السلم والحرب. يدل لذلك مما رصعت به تلك الرمال من أضرحة للمجاهدين، كالقائد العظيم البطل سيدي الجلاني بن عبد الله وأبي محمد عبد الله العياشي، ومما يوثر أن ممن كان يرتاد رباط مولاي بوسلهام الشيخ العارف المولى عبد السلام بن مشيش رحمة الله ورضي عنه. ويؤكدون هذا الأثر بأن المحل المعروف بالبرمة وهو لازال معروفا بها عند سكان تلك النواحي إلى الآن. ويبعد عن

ضريح مولاي بوسلهام بنحو كلومترين سبب تسميته بالبرمة، وهو أن المولى عبد السلام بن مشيش كان عند الفراغ من رباطه وزيارته يغادر ضريح الشيخ ومن معه من المجاهدين ويبقى وجهه مستقبلا للرباط إجلالا له[1]، فلا يستدبر الرباط ولا "ينبرم" إلا إذا وصل لذلك المحل المعروف لأجل ذلك بالبرمة.

وهذه أوليات كلها تؤكد أن تسمية وقعة الملوك الثلاثة بمعركة القصر الكبير، هي أصح التسميات وأوفقها للواقع2، وسوف لا أكلف نفسي التعرض لها بالتفصيل لأنها لم تبق في حاجة إلى ترديد الكلام حولها. وإنما أقتصر على ذكر بعض الأدلة على أنها من القصر وإليه. وأنها معركة أعد لها ما يلزمها على ضوء زمانها ومكانها من طرف الجانبين، كل على قدر استعداده، وأنها تكتسي صبغة بارزة من الحقد والنكاية المستمدين من وقائع الأندلس. وإنها كانت قائمة على أساس التعاون بين الدول الكاثوليكية المتأثرة بوصية إيزابيل كاثوليكا. ويمكنني أن أقول أن تجاهل هذا التكتيك أو السخرية منه من جانب المجاهدين المغاربة وعلى رأسهم أبو مروان عبد الملك السعدي، هو الذي ضمن النصر للمجاهدين لإعلاء كلمة الله. فلو أنهم استعملوا رويتهم ومقاييسهم في جيش العدو المكون من 43 ألف جندي ملفقة من برتغال وطليان وإسبان ومساعدة مدينة الفاتيكان وبعض رجال المتوكل، لتسرب إلى نفوسهم شيء من الضعف ولما قابلوا هذه القوة المساندة بقوة من الأعلاج وصعاليك الأتراك وفرقة من الأندلسيين من

1 – أي إجلالا لذلك الرباط! ومن هنا تتضح مكانة وقداسة ربط الجهاد في نفوس وقلوب سكان هذه النواحي على اختلاف مستوياتهم. وناهيك بمكانة المولى عبد السلام بن مشيش العلمية والفكرية والصوفية.

2 – يؤكد هذا الرأي ما أكده الكثير من شبان الناحية الشمالية الغربية المثقفين ثقافة عربية إسبانية والمهتمين بالبحث عن خصوص هذه المعركة الشهيرة، أنهم باستقصائهم للمراجع الأجنبية التي تزخر بها خزانات لشبونة ومدريد، تأكد لديهم أن تلك المصادر والمراجع، تطلق على المعركة : " معركة القصر الكبير" لا غير... ؟!.



معلمة أقيمت لذكرى الملك البرتغالي سبستيان بجماعة السواكن قرب مدينة القصر الكبير

مراكش وفاس وفرقة من البربر القادمين من ازواوة واترارة وولهاصة، ومديونة وبني سنوس وبني يزناسن وبني وكيل، وكبدانة من أهل الريف، وقسم من العرب وهم فرقة شراكة وبني عامر، وأشجع ومكونة والأحلاف وفرقة من أهل الغرب وهم سفيان وبنو مالك والخلط، وفرقة من أهل الحوز وهم أهل الدولة آنذاك من زرارة والشبانات وأولاد جرار وأولاد مطاع. إن هذه الحالة إضافة إلى ما كان معروفا من الجلالقة إذاك من تفوق في العتاد وبالإضافة إلى كون المغاربة مهاجمين في عقر ديارهم، وأغلبية جيشهم من الأندلسيين الذين كان وجودهم بالمغرب محاطا بنوع من الحذر والإحتياط لما قام به بعض اللاجئين الأندلسيين من محاولات أقلقت أمن الولاة المغاربة، كل هذا يجعل انتصار المغاربة في معركتهم تلك، من الخوارق والمعجزات، وليس من الحق في شيء أن تنسب هذه المعركة أو تسمى بغير معركة القصر الكبير، ذلك لأنه بخارج باب الوادي وبضريح سيدي علي بن محمد ابن افريحة، مقبرة شهداء المعركة يقصدها علماء المدينة وفضلاؤها التماسا لاستجابة دعواهم ولكون القصر الكبير كان مدفنا لجثة سباستيان إلى أن سلم للبرتغاليين بطلب منهم واستعطاف.

فقد ذكر أبو فارس عبد العزيز الفشتالي أن الملك الذي خلف سباستيان بعد قتله ودفنه بالقصر الكبير ورد على المولى أحمد المنصور السعدي بعد فراغه من المعركة وانتصابه ملكا على المغرب بنحو شهرين، وهو بظهر الزاوية قرب فاس يستعد للرحيل إلى مراكش ورد عليه مستعطفا وبادلا كل ما يطلبه منه من مال لفدية جثة سباستيان، فظهر للمنصور أن في تسليمه نكاية لهم وإحياء لمرارة الإنكسار الذي لحقهم وفي رؤية شلوه ممزقا، وجثته هامدة إرهابا لهم ومزيد حسرة. فأمر لهم بإخراجه من قبره بالقصر الكبير وجعله في تابوت، وحملوه إلى

أرضهم دون أن يأخذ منهم عوضا عن ذلك[1]. كما أن بحومة القطانين وبروضة هناك تنسب لسيدي الخطيب بباب الواد كذلك سبعة قبور مجهولة أصحابها، وتعرف بسبعة رجال من شهداء المعركة ولازالت قبورهم تزار إلى الآن، وإلى جانبهم العالم العارف أبو الحسن علي بن أبي المحاسن الفاسي. نعم كان حظ القصر الكبير من شهرة هذه المعركة وسمو مجدها وبريق لمعانها أوفر الحظوظ وأكبرها لا لوفرة رجاله ولا لقوة تجهيزه وإنما لمكانه الجغرافي ولترصع تاريخه منذ ظهور اسمه بأسماء المجاهدين حيث كان على الدوام موطنا للذين باعوا أنفسهم لله وابتغاء مرضاته، ولاكتسابه الشهرة اللامعة في ميدان التضحية، وخصوصا في الأوساط المراكشية التي كانت ملتقى المتطوعين ساعة التأهب لخوض المعركة. ومن الطبيعي أن يتخلق أحفاد هؤلاء وأحفاد معاصريهم بهذه الشيم الحميدة ويتوارثوها خلفا عن سلف. وقد حدث بعد ذلك بقليل أن الشيخ المامون أحد أبناء أحمد المنصور قبحت طويته وساءت نيته، وقام يناوئ أخاه زيدان، فحمله طمعه على أن يضحي بثغر العرائش ويسلمه للإسبان، أجرا لهم على مساعدته في الإنتقام من أخيه، وتم الإتفاق بينه وبين الإسبانيين على أن يفرغ لهم العرائش من المسلمين، ويسلمها لهم. وهنا أراد الشيخ المامون أن يستغل شجاعة القصريين واندفاعهم فطلب منهم أن يعينوه على إفراغ العرائش وأن يسمحوا

[1] عندما بسطت الحماية نفوذها علي المغرب، أخذت السلطات الإسبانية بالمنطقة الخليفية تسمح – كل سنة – لوفد برتغالي رسمي بزيارة "فندق جوهر" الذي يعد جزءا من القصبة المخزنية الأثرية بالقصر الكبير، والذي دفن فيه سباستيان ملك البرتغال بعد موته بمعركة وادي المخازن بالقصر الكبير زيارة " ترحم" عليه بمدفنه الأول قبل نقله إلى البرتغال. فكنا نشاهد– ونحن صغار – وصول أعضاء الوفد البرتغالي المكون من عسكريين ومدنيين، تحت حراسة شديدة من طرف كوكبة من جيش الحماية ورجال أمنها، فينزع أعضاء الوفد قبعاتهم عند وصولهم إلى باب مسجد النجار حيث بداية ساحة السوق الصغير، إلى أن يصلوا إلى باب الفندق الأثري المذكور، فيقفون وقفة خشوع وتدبر، ثم يضعون الإكليل فوق جدار زاوية الفندق المسامتة لباب المسجد الأعظم والمواجهة للمدرسة القرآنية، ثم ينصرفون. ويقيت هذه الزيارة التذكارية تتوالى سنويا إلى حوالي منتصف الأربعينات.

لـــه بجعل القصر قاعدة له، فرفضوه رفضا باتا، ولم يساعده على ذلك إلا قائده الكرني فهو الذي تولى إخراج المسلمين من العرائش وتسليمها للجيش الإسباني.

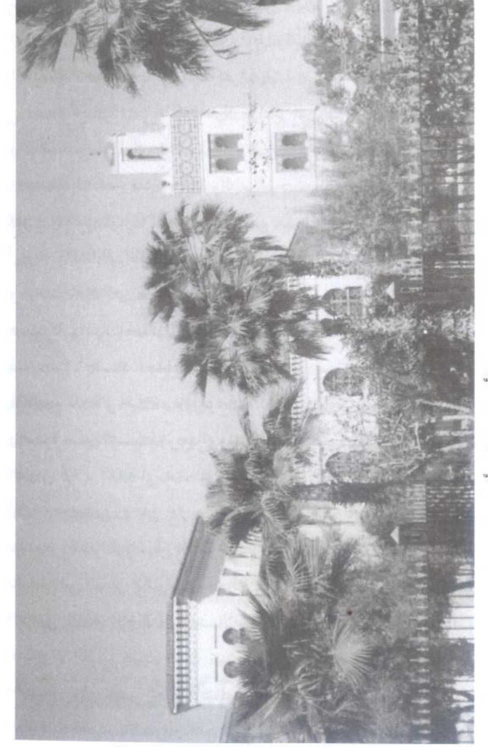
ومواقـــف القصريين من هذا النوع كثيرة شهيرة، سببت لهم كثيرا من المحـــن في مخـــتلف العصور، من ذلك ما لاقوه من الثائر أبي العباس أحمد الخضر غيلان مما سنذكره بعد.

أما وصف المعركة فسأتعمد ذكر وصف وصفها به أجنبي متعصب عرف لـــدى سائر المؤرخين من عرب وأجانب. هذا الوصف كاف لأن يعطي للقارئ والمستمع الحقيقة عن طبيعة هذه المعركة.

قـــال لويـــز ماريـــا في كتابه "أخبار الجديدة" : "وقد كان مخبوءا لنا في مستقبل الاعصار، العصر الذي لو وصفته كما وصفه غيري من المؤرخين لقلت إنـــه عصـــر النحس البالغ في النحوسة، الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس وزال رونقهـــم، وذهبت النخوة والقوة منهم وخلفها الفشل وانقطع الرجاء، واضمحل إبان الغنى والربح،وذلك هو العصر الذي هلك فيه سباستيان بالقصر الكبير (هكذا) من بلاد المغرب".

يقـــول أبـــو العباس أحمد الناصري رحمه الله، كلام هذا البرتغالي قد تحفظت عليه، وأديت ترجمته كما هي، ليعتبر به من يقف عليه، والحق ما تشهد به الأعداء.

ولا ننســـى أن من بين الضحايا الموجودين بين جثة القتلى من النصارى جـــثة أبي عبد الله محمد بن علي بن عسكر السريفي الشفشاوني صاحب كتاب دوحة الناشر في أخبار رجال القرن العاشر إذ من المعلوم أن الفقيه – وزلة العالم يضرب لها الطبل – دفعه رأيه وتمذهبه وسابقته مع البرتغال إلى أن يفر إلى جانب المتوكل، فكان من قضاء الله أن وجدت جثته من بين قتلى العدو البرتغالي. غير أن جماعة ممن التمسوا عذره وعرفوا فضله، واشتبهوا في تلبسه بهذه الحالة وما



منظر عام للمسجد الأعظم الذي أعيد ترميمه

هي الأسباب والدوافع، فعملوا على إخفاء جثته من الغوغاء، ودفنها تحت اسم مستعار، خشية أن تمتد إليه أيدي من لا يأتمر بعقل ولا دين، وظلت الكثرة الكاثرة تزور قبره باسم سيدي بو رمانة. وقد كانت بالقصر الكبير بعض الأسر المعادية له تنعته ببعض النعوت، وتعرف جلية أمره وتستغفر الله له وللمسلمين.

وكثيرا ما تخلف المعارك وراءها حزازات تنجم عن اجتهاد كل فريق ومخالفة رأيه لرأي معاديه، وهذا شيء لمسناه منذ العهد الأول، وشاهدنا من أحسن التخلص منه بالحكمة والتبصر وحسن التدبير ومن أحرق تاريخه نتيجة الهوج والاستهتار،ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ولقد لاقى القصريون من جراء مواقفهم الصارمة عدة كوارث أهلكتهم و أودت بحياة كثير من عظمائهم ووجهائهم، من ذلك ما حدث في عهد ما بعد معركة وادي المخازن عندما ثار الخضر غيلان وزحف على القصر الكبير، فوجد الأحقاد آخذة مأخذها من النفوس، سببت للقصريين الخذلان، حين مقاتلتهم للخضر غيلان، فانهزموا أمام ثورته، فاقتحم القصر عنوة، وقتل جماعة وافرة من أعيانه ووجهائه واضطر الكثير منهم للفرار إلى فاس، ومن جملة الفارين أولاد الفقيه أبي عبد الله محمد بن علي القنطري صحبة أبيهم الذي قتل أيضا وهو بفاس، ودفن خارج باب فتوح، دون أن يعرف قاتله. ثم شاء الله أن يطرد الخضر غيلان من القصر الكبير ويعود مرة أخرى لمهاجمته، فيكون حتفه بضواحي القصر الكبير ويقبر هناك. كما أنهم لقوا من جراء المولى عبد الله بن اسماعيل العلوي عام **1161**هـ الأمرين. وسبب ذلك أن بني احسن اشتكوا له عدوان الغرب عليهم فبعث بجيشه، فحاصر العرائش ثلاثة أشهر وبعد عودة الجيش نزل القصر الكبير فأضافهم القصريون، وما قصروا في إكرامهم، وبعد الغد فتك الجيش بالقصريين على غرة فتكا ذريعا، وأباحوا القصر لمدة ستة أيام. لا لشيء إلا لأنهم عرفوا بالنجدة والشجاعة. ولولا مخافة التطويل، لأتينا من

هذا بالشيء الكثير، ولنقتصر في هذه المذكرة على ما وقع بالقصر غداة نزول جيش الحماية. فقد ورد على باشا القصر إذاك الشريف مولاي أحمد الريسوني رحمه الله كتابان. أحدهما يقرأ على السكان بقصد التهدنة والتطمين، حتى لايترعجوا بترول الجيش الإسباني، والكتاب الآخر يأمرونه فيه بأن لا يعلن عن هذا الكتاب حتى يلقى القبض في منتصف الليل على جماعة من الأشخاص المعروفين بالنجدة والشجاعة. غير أن هذا الكتاب كان بالنسبة للريسوني بمثابة إنذار فقد غادر القصر من حينه مظهرا أنه سيزور داره بأصيلا وترك تنفيد الكتابين لخليفته الصائغ، فقام بتنفيذ ما اشتملا عليه، وألقى القبض على جماعة من الأبطال، وظلوا سجناء إلى أن تمكن الجيش من الترول فأطلق سراحهم[1] وكانت مغادرة الريسوني تلك، هي المنطلق نحو شن ثورته ضد الإسبان.

أما الإسبانيون والفرنسيون، فإنهم حينما وطئت أقدامهم تراب المغرب، لم يعزب عن ذهتهم شيء من تاريخ المغرب ومدنه وزواياه، فشرعوا في أعمالهم مادين أيديهم لأهل الزوايا الذين يعرفون عن زواياهم الشيء الكثير، ويعرفون أن أصلها ربط للجهاد، وهم الذين ذاقوا من (بركاتهم)، ولاقوا من زفراتهم فكان مد اليد إلى أهل الزوايا إيذانا لهم بالمهادنة من جهة، وإيهاما للجهلاء والمغفلين أنهم -أي النصارى- على اتفاق تام مع الزوايا، فيكون هذا سببا لافتراق الجموع عنهم من جهة أخرى. ولكن الروح الجهادية ظلت هي هي وما وقعة العنصرة الشهيرة بالقصر الكبير إلا معاجلة لجيوش الاحتلال من طرف أهل الزوايا، ولإنقاذ القصرْ الذي يعتبرونه مجمع المرابطين، ومدفن الشهداء

[1] - من الأسماء العائلية لبعض هؤلاء الأبطال الأشداء رحمهم الله، التي كانت تتردد على ألسنة آبائنا تغمد الله الجميع برحمته: السيد... المتني - والد الفقيه النزيه الأستاذ السيد محمد المتني الذي عاش يتكسب من حرفة الدباغة دون أن يلتجئ إلى طلب الوظيف من السلطات الاستعمارية - والمسمى السيد ... الفروجي، والمسمى السيد ... البوعناني وغيرهم ممن عرفوا بالمهارة في الرماية والمصارعة والقوة البدنية والشجاعة الحربية.

المجاهدين. إلا أنهم كان ينقصهم كثير من الرأي والتخطيط فكانت مع قضاء الله وقدره الدائرة عليهم، وكان الطواف في شوارع القصر بجثث المجاهدين وأشلائهم مما بعث في النفس نوعا من الرضى بالأمر الواقع. غير أن ظاهرة الاندفاع والتوثب بقيت من صفات القصر وشيمه.

إن مدينة القصر الكبير من المدن التي انعقد بها ميثاق كتلة العمل الوطني سنة **1929**م وقد كان رجالها دائما في الطليعة ساهموا في تدعيم العمل الوطني بأموالهم، حيث مولوا مشاريع ثقافية على مستوى الإقليم، فساهموا في تجهيز المعهد الحر بتطوان بأموالهم وفي غيره من المؤسسات الوطنية، وكانت جيوبهم دائما مفتوحة لمواجهة الذعائر التي كانت تفرض على الصحف الوطنية[1]، ونافحوا بأقلامهم دفاعا عن القضية المغربية في مختلف أطوارها، وكان القصر الكبير من أول المدن التي عرفت الصحف الشرقية[2]، وساهمت في الحركات الثقافية والفنية. أما وصف القصر اللازم فيكفي أن نقول، إن أخواننا بتطوان وخصوصا منهم الأستاذ الطريس رحمه الله كان إذا عرضت عليه فكرة تجمع أو

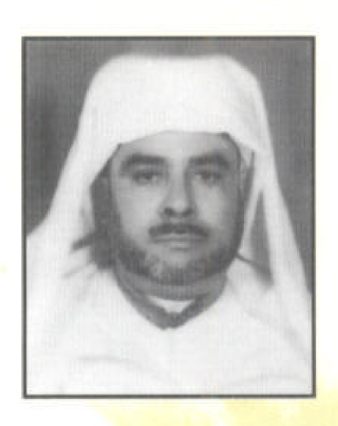
[1] – كالغرامة التي فرضتها السلطة الاستعمارية على صحيفة "الحرية" لسان حزب الإصلاح الوطني لنشرها تنويه الأستاذ الطريس رحمه الله بمواقف الجامعة العربية المناهضة للسياسة الاستعمارية، حيث غطت تبرعات القصر الكبير تكلفة الغرامة بأضعاف مضاعفة.

[2] – وعلى سبيل المثال فقد خلف المرحوم والد صاحب المحاضرة سدة ببيته مكتظة بأعداد وفيرة من صحيفة "الفتح" المصرية المجاهدة لصاحبها المجاهد : محب الدين الخطيب، وأعداد وفيرة أيضا من مجلة "كل شيء والدنيا" المصرية، فمن تلك الأعداد ما ألصق عليه طابع البريد الذي يحمل صورة "فؤاد" ملك مصر، ومنها ما يحمل صورة ابنه "فاروق الأول ملك مصر والسودان"، بالإضافة إلى أعداد قليلة من صحيفة "العروة الوثقى". كما أن العلامة العبقري الفلكي المرحوم الأستاذ محمد المصباحي بوعسرية القصري راسل باستمرار صحيفة "الفتح" المذكورة فنشرت له عدة مقالات وطنية منها ما يتعلق بشجب سياسة التفريق بين العرب والبربر المغاربة –الظهير البربري– ومنها ما يندد بالصهيونية العالمية وذلك في بداية الثلاثينيات الميلادية.

مظاهرة أو أي عمل معارض للإدارة الحامية يقول : انظروا إلى الإخوان القصريين، فإن وافقوا فنحن موافقون وإن لا فلا ...

لقد كان بودي أن أذيل هذه السوانح والذكريات بتعليق يكون رابطا لها غير أن الظروف لم تسعف وأملنا أن تتاح فرص أخرى تكون حافزا لشباب القصر على تخصيص وجهتهم للبحث عن مظان عزة أسلافهم، وذكريات أمجادهم.

فهرس



"ولقد لاقى القصريون من جراء مواقفهم الصارمة عدة كوارث أهلكتهم و أودت بحياة كثير من عظمائهم ووجهائهم، من ذلك ما حدث في عهد ما بعد معركة وادي المخازن عندما ثار الخضر غيلان وزحف على القصر الكبير، فوجد الأحقاد آخذة مأخذها من النفوس، سببت للقصريين الخذلان، حين مقاتلتهم للخضر غيلان، فانهزموا أمام ثورته، فاقتحم القصر عنوة، وقتل جماعة وافرة من أعيانه ووجهائه واضطر الكثير منهم للفرار إلى فاس..."

طوب بريس - 2004